

الخطبة الأولى

الحمد للعزيز الغفار، الرحيم الجبار، مكور النهار على الليل، ومكور الليل على النهار، أحمده - سبحانه - وأشكره على نعمه العزارة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، تعالى عن الشركاء والأنداد والأولاد والأصهار، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله النبي - صلى الله عليه وسلم - المختار، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه البررة الأخيار، المهاجرين منهم والأنصار، وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد: عيادة الله، اتقوا الله حق تقائه ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون، وتفقى الله حق تقائه: هي أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر. وإن من تقوى الله تعالى مجية الله ومحبة أوليائه الذين اختارهم وهداهم لدينه. وإن من تقوى الله تعالى بغض أعدائه ومقتهم وإذلالهم. ولا شك أن هذه هي صفة المؤمنين، من صحابة النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن بعدهم، أنهم يحبون ربهم، ويحبون من يحبه، وبهالون أولياءه، فيحبون فيه، ويغضبون فيه، ويتطيعونه فيما أمرهم سبحانه وتعالى. * ولأجل ذلك حكى الله عنهم: أنهم لا يخافون في الله لومة لائم، وأنهم يحبونه ويحبهم، قال تعالى: { فَسَوْفَ يَاتِي اللَّهُ يَقُولُ يُحِبُّهُمْ وَيُحَبُّهُمْ أَذْلَلُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَائِمٍ } وهذه الصفات انطبقت على صحابة النبي صلى الله عليه وسلم. * فأخبر تعالى بأنه يحبهم، وما ذاك إلا لأخلاقهم في دين الله - عز وجل - وتوحيدهم لربهم، وأنهم يحبونه: لأنه الذي أنعم عليهم وهداهم، والذي خلقهم وتولاهم، فهم يحبونه من كل قلوبهم، ويطعونه وبعبداونه حق عبادته، ولا يخافون بكلمة الحق ويقولونها، ولو كان على أنفسهم، ويقولون الحق ولو كان مراً، ويعادون أعداء الله، ولو كان أقرب قرب، ويغطونهم وبترعونهم في ذات الله سبحانه. * ولقد أمرهم الله بأن يقاطعوا كل من عادي ربيهم؛ وذلك لأن من أحب الله أبغض أعداءه ومقتهم وابتعد عنهم، وأن من أحب أعداء الله وقربيهم وصدقهم ووالاهم فإنه متوعد بالوعيد الشديد، ولو لم يكن في ذلك إلا قول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوّي وَعَدُوّكُمْ أَوْلَيَاءَ تُلَقُّوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوْدَةِ } . فكل المشركين أعداء لله وأعداء للمسلمين، يكيدون لهم المكائد، ويضمرون لهم الحقد، ويبغضونهم ويحتقرنهم، فإن كل كافر وكل منافق يأتي ديني به، فإنه عدو لله وعدو للإسلام، ومن كان عدواً لله وعدوا للإسلام، فإن الله تعالى عدوه، يقول الله تعالى: { مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجَبَرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوُّ لِلْكَافِرِينَ } . * إذا كان الكافر عدواً لله - والله تعالى عدو له - وجب عليك أن تكون أيضاً معادياً له، وإذا عاديت الكافر وجب عليك أن تقاطعه، وأن تهجره، وأن تبتعد عنه، وأن تحذر منه، وأن تحرر من شأنه، وأن تتحقق في ذات الله تعالى. وهذا كان صحابة النبي - صلى الله عليه وسلم - فقد روى عن أبي موسى { أنه استجلب كاتباً له كافراً، ثم إن أعلم بذلك عمر - رضي الله عنه - وقال: إن لي كاتباً نصراانياً، فقال له عمر قولاً شديداً، حيث قال: مالك قاتل الله؟! أما سمعت الله تعالى يقول: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا إِلَيْهِمْ وَالثَّصَارِيَ أَوْلَيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلَيَاءَ بَعْضٍ } ! فقال أبو موسى لي كاتبته له دينه، فقال عمر - رضي الله - لا تقربوه بعد إذ أبعدهم الله، ولا تعزوهم بعد إذ أذلهم الله، ولا تحيوه بعد إذ أغضبهم الله، ولا ترفعوه بعد إذ وضعهم الله } رواه البيهقي في السنن (10 / 127) وذكره شيخ الإسلام في الاقتضاء (1 / 165) عن الإمام أحمد بسنده صحيح، ونقله ابن مفلح في الآداب الشرعية (2 / 467) عن سعيد بن منصور، وصحح سنته. * فوقعت هذه الكلمات موقفها من الصحابة رضي الله عنهم. * ولذلك يجب علينا أنها المسلمين أن نحذر كل الحذر من أن نقرب كافراً أي كان كفراً، أو أن نرفع مقامه، فإن ذلك معاداة لله تعالى، حيث إن ربنا - سبحانه - ربط الكفر على الموالاة، وقطع المحية بين المؤمنين وبين الكفار، ولو كانوا أقارب، ولو كانوا إخواناً، ولو كانوا أصحاباً، يقول الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آتَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلَيَاءَ إِنْ اسْتَخِنُوا كُفُّارًا عَلَى الْإِيمَانِ } يعني: لو كانوا آباءً، أو أبناءً، أو أخوةً، أو عشيرةً، بل واجب عليك أن تهجرهم في ذات الله، وأن تمقتهم وتكرههم، وتحقر من شأنهم، فيذلك تكون صادقاً في عداوة من عاداه الله تعالى، وموالاة أولياء الله عز وجل. * ولقد خاف المؤمنون من مثل هذه الآيات أن تنطبق عليهم، والتي فيها ذم الموالين للكفار، والتي ذم بها بعض أهل الكتاب، بقوله تعالى: { تَرَى كَثِيرًا كِفَيْهِمْ يُتَوَلَّونَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمْتُ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَدَابِ هُمْ حَالِدُونَ } هكذا رتب الله سخطه، ورتب الخلوود في العذاب على هذا الأمر، وما يسئلزمه، أي: على كونهم اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين. * ثم يقول تعالى: { وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلَيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ قَاسِفُونَ } وهكذا حكم عليهم بأن الإيمان الصحيح، والإيمان الذي يدين به المؤمنون يحول بين صاحبه وبين أن يتخذ الكافر ولها من دون المؤمنين، كما نهاهم الله بقوله تعالى: { لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلَيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ } فنهاهم عن اتخاذ الكافرين أولياء، بل لهم في ولاية المؤمن ما يكفيهم عن ولاية الكافر. * فاما أعداء الله، والذين هم أعداء للإسلام، فلا يجوز لنا أن نحبهم، ولا نقربهم، ولا نتولاهم، ولا نخدمهم أية خدمة، مخافة أن تنطبق علينا هذه الآيات التي فيها هذا الوعيد الشديد، ونحن نعرف أنهم أعداء لدينا، وأعداء لنبينا، وأعداء لإسلامنا، وأعداء لله تعالى، ولو أظهروا الحاجة والفاقة، ولو أظهروا النصوح، ولو أظهروا الإخلاص في أعمالهم، فإنهم بكل حال لا يوثق بهم، ولا يوثق بمحبتهם. فكم عادوا للMuslimين وكادوا لهم!! وكم مكرروا بهم وسلبوا أموالهم!! وكم حاولوا أن يصادقوهم وياخذوا بأرادهم ويستولوا على خيراتهم!! وكم قتلوا أبناءهم وشردوهم عن ديارهم!! فهل يأمن المسلم كيدهم ومكرهم مع ما يظهر منهم من البغض والحقد للإسلام والMuslimين!! يقول الله تعالى: { وَلَنْ تَرَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا التَّصَارِي حَتَّى شَيْءَ مِلَّهُمْ } . * وهكذا كل كافر، وكل منافق، لا يرضي عنا ولا يحبنا، ولو أظهر ما أظهر حتى ننصرف عن ديننا، وحتى يخرجنا عما نحن عليه من الدين؛ لأنهم يعرفون أن دين الإسلام هو الذي نصر أهله، وهو الذي مكن لهم، وبالإسلام وبتحقيق الإيمان تمكنا المسلمين وظروا، وظهرت قوتهم وانتشر دينهم، وبنتحقيق الإسلام يا عباد الله فتح المسلمين البلاد ودخولوا العباد، وانتصروا على كل من عادهم وخالفهم، فلما عرف ذلك أعداء الله حرموا على أن يكيدوا للمسلمين، وأن يوقعوا بهم ما يوقعون. * فلأجل ذلك يجب على المسلمين أن يأخذوا حذره، وأن يبعدوه عنهم، وأن يتبعدوا عنهم، وأن يبعدوه كل البعد، وألا يوالوهم بأية موالاة، حتى يكونوا بذلك محققين لديهم، ومحققين لعبادتهم، ومحققين لطاعة ربهم، ولطاعة نبيهم - صلى الله عليه وسلم - ومتبعين آثار من سلفهم من الصحابة - رضي الله عنهم - الذين هجروا آباءهم وأبناءهم وآخواتهم، وهجروا بلادهم، وتركوا البلاد والأموال والأولاد. كل ذلك لأجل الله - سبحانه وتعالى - وهو بما بهم، فعادوا أعداء الله، ولو كانوا أقرب قرب، ولأجل هذا نزل فيهم قوله تعالى: { لَا تَحِدُّ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْأَخِرِ يُؤْمِنُونَ قَنْ خَالِهِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَمْ كَانُوا أَيَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أَوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدُهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أَوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } . * بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، أقول قوله هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم ولسائر المسلمين، من كل ذنب فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.